

بدو النقب وبئر السبع: مئة عام من السياسة والنضال

منصور النصاصرة

ترجمة ساندر الأَشهب

الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ٢٠٢٠.
٥٢٠ صفحة.

تحديداً - من خلال النظر إلى حياة أبناء هذا الجنوب البدو الذين يطلق عليهم النصاصرة تسمية "الأصلانيين" في تتبّع أصواتهم وقصص معيشتهم. وتكمن هذه المحاولة من خلال تحليل النصاصرة القوة بصفتها علاقة، أي أنها لا تُحسب مادياً بأدواتها العلنية في التفوق العسكري أو المؤسساتي المتجذر في ممارسة العنف الاستعماري فحسب، بل أيضاً من خلال تفصيلات الحياة اليومية لصمود البدو ونضالهم ضد مختلف السياسات الاستعمارية التي حاولت وما زالت أن تسلب الأرض منهم. ويأتي هذا عبر رؤية البدو كفاعلين ضد هذه السياسات، وأن الأرض ستبقى حية باسمها، وعبر ميكانيزمات المقاومة اليومية "المخفية" من خلال: التحايل؛ التفاوض؛ الرفض؛ عبور الحدود؛ العودة المستمرة؛ الذاكرة المتأصلة بتفصيلات الموت والحياة من أجل الأرض ولها. يطرح النصاصرة في

النصاصرة عبرها الأزمنة المتعددة والمتغيرة التي عايشها بدو النقب وبئر السبع، كما شمل مجموعة من المقابلات مع بدو الجنوب الفلسطيني، والبدو في الأردن الذين يحافظون على علاقات ممتدة ومتواصلة. وترافق ذلك مع إيراد النصاصرة مجموعة من الصور الفوتوغرافية والخرائط التي توضح توزيع أماكن عيش البدو في جنوب فلسطين، وكيفية تهجيرهم وخلخلة وجودهم العشائري بفعل الاستعمار البريطاني والصهيوني. يتمحور الطرح المركزي عند النصاصرة على ضرورة إعادة كتابة قصة جنوب فلسطين - النقب وبئر السبع

يتناول

منصور النصاصرة الجنوب الفلسطيني، وتحديداً النقب وبئر السبع، وذلك عبر بحث يجريه كابن للجنوب الفلسطيني. وتأتي هذه الأهمية تحديداً لسرديات التهجير، وسياسات التهجير الاستعمارية، في مناطق فلسطين كلها من شمالها إلى جنوبها.

هذا الكتاب مكوّن من أحد عشر فصلاً تغطي امتداداً زمنياً من ١٠٠ عام، ويتحدث عن بدو النقب وبئر السبع، بدءاً بفترة الماضي العثماني وصولاً إلى الزمن الحاضر في الواقع الاستعماري الصهيوني. وقد حملت الفصول بحثاً ميدانياً واسعاً شمل أرشيفات متنوعة يتتبّع

الفصل الثالث إلى السياسات الاستعمارية البريطانية تجاه جنوب فلسطين خلال الفترة ١٩١٧ - ١٩٤٨، الأمر الذي استلزم عدة محاولات للسيطرة على غزة التي صارت حقاً، وإلى يومنا هذا، "مقبرة للغزة"، وذلك تبعاً للأرشيف البريطاني، وخسائر الجيش الاستعماري البريطاني، ولاحقاً الصهيوني فيها. وقد ركّز الاستعمار البريطاني على مناطق الجنوب الفلسطيني باعتباره منطقة حدودية خطيرة، وعزّز البنية الخدماتية في بئر السبع، من خلال بناء الطرق وبناء المدارس، من أجل استمالة البدو هناك. وعلى الرغم من هذه المحاولات، فإن البدو رفضوا أن يتدخل البريطانيون بأي من شؤونهم الداخلية، أو بأي طلبات تتعلق بتسجيل أسلحتهم وتعدادها، أو بفرض أي قوانين على حركتهم بين الحدود. ويضاف إلى ذلك، ما يشير إليه ناصرة بشأن مشاركة البدو في ثورة سنة

جنوب فلسطين التي كانت تُعرف آنذاك بـ "بلاد غزة"، وكانت تُدار إمّا من غزة، وإمّا من القدس، بدءاً بالقرن السادس عشر حتى بداية القرن العشرين. ويشير الناصرة إلى أن العلاقة بين البدو والعثمانيين كانت علاقة عدوانية بسبب المحاولات المستمرة لفرض السيطرة على البدو. وعلى الرغم من المحاولات كلها، فإن العثمانيين لم ينجحوا في ذلك، إذ كان البدو يرفضون أي تعاون مع المسؤولين العثمانيين إمّا عبر الاحتجاج المتواصل، وإمّا بعبور الحدود من شرق الأردن إلى سيناء. وقد استمر ذلك حتى سنة ١٩٠١ حين أنشأ العثمانيون مركزاً إدارياً في بئر السبع في محاولة لاستمالة البدو، من خلال تشغيلهم في الوظائف الحكومية داخل المؤسسة العثمانية، ومحاولة ربطهم بالمناطق الحضرية الأخرى في فلسطين عبر إنشاء شبكة من الطرق والسكك الحديدية. يتطرق الناصرة في

الفصل الأول إطاراً نظرياً وتحليلياً بشأن ما يصفه بالمقاومة والنضال عند بدو النقب، وتناقضات القوة بين البدو و"الدولة"، من خلال تحديد النظريات التي تلائم رؤيته إلى مقاومة البدو وتغييراتها منذ الحكم العثماني حتى اللحظة الراهنة. وهنا يستعين الناصرة بتحليل جيمس سكوت عن المقاومة المخفية في تفصيلات الحياة اليومية، والتي يرى الناصرة أنها ملائمة لوصف أنواع النضال والمقاومة التي عاشها ويعيشها بدو النقب وبئر السبع. كما يركز في تحليله لوضع البدو الراهن على مفهوم "الأصلانية القانونية"، وضرورة الإقرار بأن أرض الأصلانيين البدو يجب أن تمرّ عبر القوانين الدولية التي يرى فيها أساساً لمواجهة السلب الاستعماري. وفي الفصل الثاني، يتنقل الكتاب عبر الأزمنة المبحوثة، وأولها سياسات العثمانيين تجاه البدو في

١٩٣٦، ورفض سياسات الاستعمار البريطاني على فلسطين.

أمّا في الفصل الرابع وهو الأكثر زخماً، فيناقش المؤلف "مشروع الدولة اليهودية" بعد نكبة ١٩٤٨، وتظهر فيه بشكل أساسي قضية الأرض التي يحاول الاستعمار الصهيوني، منذ اللحظة الأولى، سلبها من بدو الجنوب الفلسطيني. وهذه العملية لم تنفصل طبعاً عن قوانين الأراضي العثمانية التي عملت بها سلطات الاستعمار البريطاني، والتي استغلّتها الصهيونية بشكل مكثف لسلب الأرض وبناء المستعمرات عبر سرديات فحواها أن الجنوب خال، وأنه أرض قاحلة لا يمكن أن الزرع فيها، وبالتالي لا يمكن أن يكون البدو مالكيين لها، ولا سيما أن القوانين العثمانية للأراضي كانت تعتمد على فكرة زراعة الأرض وإحيائها من أجل تملّكها. وفي هذه المرحلة، دخل بدو النقب وبئر السبع في معارك لإعلاء تثبيت

الملكية، ومحاولة عرض وثائق متعددة من الفترة العثمانية وفترة الاستعمار البريطاني الانتدابية، غير أن المشروع الصهيوني الاستعماري قام في أساسه على فرض ادعاءاته وسياساته من أجل سلب أكبر قدر من الأرض.

وفي الفصل الخامس حتى الفصل التاسع يعرض الناصرة المرحلة الأقسى على بدو النقب وبئر السبع، وهي فترة الحكم العسكري الصهيوني التي أظهرت تصاعد ممارسات البدو النضالية لكسر القوانين العسكرية، والتي ثبت فشلها في السيطرة على البدو، أو على تنقلهم بين الحدود، أو منعهم من التواصل الاجتماعي مع العشائر البدوية المحيطة بجنوب فلسطين. ويضاف إلى ذلك أن البدو استطاعوا خلق عدة ثغرات لممارسة اقتصاد التهريب، وإظهار ضعف "المسؤولين" الصهيونيين تجاه مجتمعات البدو، وقوانينهم الداخلية التي

اتسمت بالصلابة، بحيث قاوم البدو يوماً للحفاظ على حياتهم وكيونوتهم الاجتماعية من التدخلات الاستعمارية. وربما كان الأبرز في ذلك محاولة الاستعمار الصهيوني خلخلة العشائر البدوية وحصرها بهدف تسهيل السيطرة عليها، وقد جابه البدو هذا الأمر بمحاولات تعطيل عمليات الإحصاء والتعداد. كما تحدّى البدو الاستعمار الذي قلّل لهم مساحات الرعي والزراعة، فقابلوها بالرعي في أراضي المستعمرات على الرغم من المنع العسكري.

أمّا الفصل العاشر، فيتناول الفترة الأكثر جدّة، من "اتفاق أوسلو" في سنة ١٩٩٣ حتى مشروع برافر الاستيطاني التهجير في سنة ٢٠١٣، ويشير فيه الناصرة إلى استمرار السياسات الاستعمارية الاستيطانية في جنوب فلسطين، وكيف استمرت أيضاً مقاومة الاستيطان، ومواصلة الاحتجاج، والتشكيلات السياسية التي

الصهيونية الراهنة، والتي يرى النصارى أن عليهم أن يحرصوا على أن يكونوا "قانونيين أكثر" في سعيهم لإعلاء "أصلا نيتهم"، فأمر مثير للقلق، لأنه ينبع من الممارسة نفسها التي تفصل البدو عن شعبهم الفلسطيني، في حين لا يمكن أن يكون القانون ملاذاً ضمن كيانٍ لا - قانوني سيظل يحيل إلى أشكال "مواطنة" عازلة وتشثيتية ضمن الصناعات الاستعمارية لأهل البلد الأصليين.

ياسمين قعدان

مرشحة في برنامج
الدكتوراه في العلوم
الاجتماعية في جامعة
بيرزيت

ثقافياً واجتماعياً وسياسياً. وتبعاً لذلك، ربما كان من المفيد إجراء قراءة طبقية للمجتمعات البدوية، وكيف تمكّن الاستعمار من إحداث هذا الفصل والإبقاء عليه بين البدو والمجتمعات الفلاحية والحضرية الأخرى. وكذلك ربما كان من الضروري التشديد على حقيقة أن نمط حياة البدو ومجتمعاتهم كان يتركز أساساً على تحديّ الخرائط الاستعمارية والحدودية الفاصلة، على الرغم من إشارة النصارى عدة مرات، وإن باقتضاب، إلى أن عدم قدرة الاستعمار على السيطرة على البدو إنما كان نتيجة عدم اهتمامهم بالحدود والقوانين العسكرية التي تمنع تنقلهم. أمّا وضع البدو ضمن السياسات

انخرط فيها أبناء النقب وبئر السبع في مواجهة مستمرة حتى اليوم. وجاء الفصل الحادي عشر على شكل خاتمة تُجمل ما ورد في الكتاب.

ختاماً، يجب الإشارة هنا، وبعد تقدير هذا الجهد المعرفي الكبير عن بدو الجنوب الفلسطيني، إلى أن هذه القراءة المستفيضة أبقتنا عطشى لمعرفة المزيد عن فترات زمنية تناولها الكتاب باقتضاب، وتحديدًا الفترة العثمانية، كما أنها لم تسع بما فيه الكفاية لتوضيح أن البدو هم مكون أساسي من الشعب الفلسطيني، وليسوا فئة منفصلة اجتماعياً عنه، وأن السياسات الاستعمارية عملت على إحداث هذا الفصل